

# أسرار الصَّلَاة

و الفرق و الموازنة بين ذوق الصَّلَاة و  
السَّماع

للإمام العلامة أبي عبد الله محمد بن أبي بكر  
بن أيوب الزُّرعي الدَّمشقي الشهير بابن قَيْم  
الجَوْزِيَّة  
691-751

يُنشر لأول مرّة على الشبكة المعلوماتية  
اعتنى به

أبو عبد الله هَمَّام الجزائري

28/04/2004م

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ يَسِّرْ و أعن يا كريم  
قال الإمام محمد بن أبي بكر بن القَيْم الجَوْزِيَّة رحمه  
الله تعالى .

# فصل<sup>٩</sup>

في الموازنة بين ذوق السَّماع وذوق الصلاة و القرآن ، و بيان أن أحد الذوقين مباين للآخر من كل وجه ، و أنه كلما قوي ذوق أحدهما و سلطانه ضعف ذوق الآخر و سلطانه .

## الصلاة قرّة عيون المحبين و هدية الله للمؤمنين<sup>(1)</sup>

فاعلم أنه لا ريب أن الصلاة قرّة عُيون المحبين ، و لذة أرواح الموحدين ، و بستان العابدين و لذة نفوس الخاشعين ، و محكّ أحوال الصادقين ، و ميزان أحوال السالكين ، و هي رحمةُ الله المهداة إلى عباده المؤمنين .

هداهم إليها ، و عزّفهم بها ، و أهداها إليهم على يد رسوله الصادق الأمين ، رحمة بهم ، و إكراما لهم ، لينالوا بها شرف كرامته ، و الفوز بقربه لا حاجة منه إليهم ، بل منّة منه ، و تفضّلا عليهم ، و تعبّد بها قلوبهم و جوارحهم جميعا ، و جعل حظ القلب العارف منها أكمل الحظين و أعظمهما ؛ و هو إقباله على ربّه سبحانه ، و فرحه و تليذّه بقربه ، و تنعمه بحبه ، و ابتهاجه بالقيام بين يديه ، و انصرافه حال القيام له بالعبودية عن الالتفات إلى غير معبوده ، و تكميله حقوق حقوق عبوديته ظاهرا و باطنا حتى تقع على الوجه الذي يرضاه ربه سبحانه .

و لما امتحن الله سبحانه عبده بالشهوة و أشباهها من داخل فيه و خارج عنه ، اقتضت تمام رحمته به و إحسانه إليه أن هيا له مأدبة قد جمعت من جميع

(1) - العناوين الجانبية من وضع مُحَقِّق الرسالة

الألوان و التحف و التحف و الخلع و الخلع و العطايا ،  
و دعاه إليها كل يوم خمس مرّات ، و جعل في كل  
لون من ألوان تلك المأدبة ، لذة و منفعة و مصلحة و  
وقار لهذا العبد ، الذي قد دعاه إلى تلك المأدبة  
ليست في اللون الآخر ، لتكمل لذة عبده في كل من  
ألوان العبودية و يُكرمه بكلِّ صنفٍ من أصناف  
الكرامة ، و يكون كل فعل من أفعال تلك العبودية  
مُكفراً لمذموم كان يكرهه بإزائه ، و يشبه عليه نورا  
خاصا ، فإن الصلاة نور و قوة في قلبه و جوارحه و  
سعة في رزقه ، و محبة في العباد له ، و إن الملائكة  
لتفرح و كذلك بقاع الأرض ، و جبالها و أشجارها ، و  
أنهارها تكون له نورا و ثوابا خاصا يوم لقائه .  
فيصدر المدعو من هذه المأدبة و قد أشبعه و قد  
أشبعه و أرواه ، و خلع عليه بخلع القبول ، و أغناه ، و  
ذلك أن قلبه كان قبل أن يأتي هذه المأدبة ، قد ناله  
من الجوع و القحط و الجذب و الظمأ و العري و  
السقم ما ناله ، فصدر من عنده و قد أغناه و أعطاه  
من الطعام و الشراب و اللباس و التحف ما يغنيه .

## تشبيه القلب بالأرض

و لما كانت الجذُوب متتابعة على القلوب ، و قحطُ النفوس متوالياً عليها ، جَدَّد له الدعوة آلة هذه المأدبة وقتاً بعد وقت رحمة منه به، فلا يزال مُستسقياً ، طالبا إلى من بيده غيثُ القلوب ، و سَقِيها مستمطراً سحائب رحمته لئلا ييبس ما أنبتته له تلك الرحمة من نبات الإيمان ، و كلاً الإحسان و عُشبه و ثماره ، و لئلا تنقطع مادة النبات من الروح و القلب ، فلا يزال القلب في استسقاء و استمطار هكذا دائماً ، يشكو إلى ربه جده ، و قحطه ، و ضرورته إلى سُقيا رحمته ، و غيث بَرِّه ، فهذا دأب العبد أيام حياته .

فالقحط الذي ينزل بالقلب هو الغفلة ، فالغفلة هي قحط القلوب و جذبها ، و ما دام العبد في ذكر الله و الإقبال عليه فغيث الرحمة ينزل عليه كالمطر المتدارك ، فإذا غفل ناله من القحط بحسب غفلته قلة و كثرة ، فإذا تمكنت الغفلة منه ، و استحكمت صارت أرضه خراباً ميتة ، و سنته جرداء يابسة ، و حريق الشهوات يعمل فيها من كل جانب كالسَّمائم . فتصير أرضه بوراً بعد أن كانت مخصبة بأنواع النبات ، و الثمار و غيرها ، و إذا تدارك عليه غيث الرحمة اهتزت أرض إيمانه و أعماله و ربت ، و أنبتت من كل زوج بهيج ، فإذا ناله القحط و الجذب كان بمنزلة شجرة رطوبتها و خضرتها و لينها و ثمارها من الماء ، فإذا منعت من الماء يبست عروقها و ذبلت أغصانها ، و حُبست ثمارها ، و ربما يبست الأغصان و الشجرة ، فإذا مددت منها غصناً إلى نفسك لم يمتد ، و لم ينقذ لك ، و انكسر ، فحينئذ تقتضي حكمة قيم البستان قَطع تلك الشجرة و جعلها وقوداً للنار .

## القلب يبس إذا خلا من توحيد الله

فكذلك القلب ، إنما يبس إذا خلا من توحيد الله و حبه و معرفته و ذكره و دعائه ، فتصيبه حرارة النفس ، و نار الشهوات ، فتمتنع أغصان الجوارح من الامتداد إذا مددتها ، و الانقياد إذا قُدتها ، فلا تصلح بعدُ هي و الشجرة إلا للثَّار { **فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلالٍ مُبينٍ** } [الزمر: 22] ، فإذا كان القلب ممطورا بمطر الرحمة ، كانت الأغصان لينةً مُنقادة رطبة ، فإذا مددتها إلى أمر الله انقادت معك ، و أقبلت سريعة لينة وادعة ، فجئيت منها من ثمار العبودية ما يحمله كل غصن من تلك الأغصان و مادتها من رطوبة القلب و رِيّه ، فالمادة تعمل عملها في القلب و الجوارح ، و إذا يبس القلب تعطلت الأغصان من أعمال البَر ؛ لأن مادة القلب و حياته قد انقطعت منه فلم تنتشر في الجوارح ، فتحمل كل جارحة ثمرها من العبودية ، و لله في كل جارحة من جوارح العبد عبودية تُخصّه ، و طاعة مطلوبة منها ، خلقت لأجلها و هيئت لها .

## الناس ثلاثة أقسام في استعمال جوارحهم

و الناس بعد ذلك ثلاثة أقسام :  
**أحدهما** : من استعمل تلك الجوارح فيما خلقت له ، و أريد منها ، فهذا هو الذي تاجر الله بأربح التجارة ، و باع نفسه لله بأربح البيع .

و الصلاة وُضعت لاستعمال الجوارح جميعها في العبودية تبعاً لقيام القلب بها و هذا رجلٌ عَرَفَ نعمة الله فيما خُلق له من الجوارح و ما أنعم عليه من الآلاء ، و النعم ، فقام بعبوديته ظاهراً و باطناً و

استعمل جوارحه في طاعة ربّه ، و حفظ نفسه و جوارحه عمّا يُغضب ربه و يشينه عنده.

**والثاني :** من استعمل جوارحه فيما لم تُخلق له ، بل حبسها على المخالفات و المعاصي ، و لم يطلقها ، فهذا هو الذي خابَ سعيه ، و خسرت تجارته ، و فاته رضا ربّه عزّ و جل عنه ، و جَزِيل ثوابه ، و حصل على سخطه و أليم عقابه.

**والثالث :** مَنْ عطّل جوارحه ، و أماتها بالبطالة و الجهالة، فهذا أيضا خاسر بائر أعظم خسارة من الذي قبله ، فإن العبد إنما خُلِق للعبادة و الطاعة لا للبطالة

و أبغض الخلق إلى الله العبد البطال الذي لا في شغل الدنيا و لا في سعي الآخرة. بل هو كلٌّ على الدنيا و الدين ، بل لو سعى للدنيا و لم يسع للآخرة كان مذموماً مخذولاً ، و كيف إذا عطّل الأمرين ، و إنّ امرء يسعى لدنياه دائما ، و يذهل عن أخراه ، لا شك خاسر.

### **تمثيل لهذه الأصناف الثلاثة**

فالرجل الأول ، كرجل أقطع أرضا واسعة ، و أعين على عمارتها بآلات الحرث ، و البذر و أعطي ما يكفيها لسقيها و حرثها ، فحرثها و هيأها للزراعة ، و بذر فيها من أنواع الغلات ، و غرس فيها من أنواع الأشجار و الفواكه المختلفة الألوان ثم أحاطها بحائط ، و لم يهملها بل أقام عليها الحرس ، و حصنها من الفساد و المفسدين ، و جعل يتعاهدتها كل يوم فيُصلح ما فسد منه ، و يغرس فيها عوض ما يبس ، و ينقي دغلها و يقطع شووكها ، و يستعين بغلتها على عمارتها.

**والثاني :** بمنزلة رجل أخذ تلك الأرض ، و جعلها مأوى السباع و الهوام ، و موضعاً للجيف و الأنتان ، و جعلها معقلاً يأوي إليه فيها كل مفسد و مؤذٍ و لصٍّ ، و أخذ ما أعين به من حرثتها و بذارها و صلاحها ، فصرفه و جعله معونة و معيشة لمن فيها ، من أهل الشرِّ و الفساد.

**و الثالث :** بمنزلة رجل عطَّلها و أهملها و أرسل الماء ضائعاً في القفار و الصحارى فقعد مذموماً محسوراً.

فهذا مثال أهل اليقظة ، و أهل الغفلة ، و أهل الخيانة.

### أهل اليقظة و الغفلة الخيانة

**فالأول :** مثال أهل اليقظة ، و الاستعداد لما خلقوا له.

**و الثاني :** مثال أهل الخيانة.

**و الثالث :** مثال لأهل الغفلة .

**فالأول :** إذا تحرَّك أو سَكَنَ ، أو قام أو قعد ، أو أكل أو شرب ، أو نام ، أو لبس ، أو نطق ، أو سكت كان كلُّه له لا عليه ، و كان في ذكر و طاعةٍ و قربة و مزيد .

**و الثاني :** إذا فعل ذلك كان عليه لا له ، و كان في طردٍ و إبعادٍ و خُسران .

**و الثالث :** إذا فعل ذلك كان في غفلةٍ و بطالةٍ و تفريطٍ .

**فالأول :** يتقلَّب فيما يتقلب فيه بحكم الطاعة و القربة.

**و الثاني :** يتقلب في ذلك بحكم الخيانة و التعدي ، فإن الله لم يملكه ما ملكه ليستعين به على مخالفته ، فهو جان متعد خائن لله تعالى في نعمه عليه ، معاقبٌ على التنعم بها في غير طاعته .

**و الثالث :** يتقلب في ذلك و يتناوله بحكم الغفلة و الهوى و نهما النفس و طبعها ، لم يتمتع بذلك ابتغاء رضوان الله تعالى و التقرب إليه ، فهذا خسارانه بين واضح ، إذ عطل أوقات عمره التي لا قيمة لها عن أفضل الأرباح و التجارات .

فدعا الله عباده المؤمنين الموحدين إلى هذه الصلوات الخمس ، رحمة منه بهم ، و هياً لهم فيها أنواع العبادة ؛ لينال العبد من كل قول و فعل و حركة و سكون حظه من عطاياه .

### **ما هو سر الصلاة ؟ و تمثيل لذلك**

و كان سرُّ الصلاة و لبها إقبال القلب فيها على الله ، و حضوره بكليته بين يديه ، فإذا لم يقبل عليه و اشتغل بغيره و لهى بحديث نفسه ، كان بمنزلة و اfd وفد إلى باب الملك معتذرا من خطاياهم و زلله مستمطرا سحائب جوده و كرمه و رحمته ، مستطعما له ما يقيت قلبه ، ليقوى به على القيام في خدمته ، فلما وصل إلى باب الملك ، و لم يبق إلا مناجته له ، التفت عن الملك و زاغ عنه يمينا و شمالا ، أو ولاه ظهره ، و اشتغل عنه بأمقيت شيء إلى الملك ، و أقله عنده قدرا عليه ، فأثره عليه ، و صيره قلبة قلبه ، و محلَّ توجهه ، و موضع سرِّه ، و بعث غلمانهم و خدمة ليقفوا في خدم طاعة الملك عوضا عنه و يعتذروا عنه ، و ينوبوا عنه في الخدمة ، و الملك يشاهد ذلك و يرى حاله مع هذا ، فكرم الملك

وجوده و سعة برّه و إحسانه تأتي أن يصرف عنه تلك  
الخدم و الأتباع ، فيصيبه من رحمته و إحسانه ؛ لكن  
فرق بين قسمة الغنائم على أهل السَّهْمَانِ من  
الغانمين ، و بين الرِّضْخِ لمن لا سهم له : **{ و لكل  
درجات ممّا عملوا و يُؤفّهم أعمالهم و هم  
لا يظلمون }** [الأحقاف : 19] ، و الله سبحانه و  
تعالى خلق هذا النوع الإنساني لنفسه و اختصه له ، و  
خلق كل شيء له ، و من أجله كما في الأثر الإلهي :  
" ابن آدم خلقتك لنفسي ، و خلقت كل شيء لك ،  
فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقتك لك عمّا خلقتك له "

و في أثر آخر : " ابن آدم خلقتك لنفسي فلا تلعب و  
تكفلت برزقك فلا تتعب ، ابن آدم اطلبني تجدني ،  
فإن و جدتني و جدت كل شيء ، و إن فُتت فأتك كل  
شيء ، و أنا أحب إليك من كل شيء " .  
و جعل سبحانه و تعالى الصلاة سببا موصلا إلى قُربه  
، و مناجاته ، و محبته و الأنس به .

### **ما بين الصلوات الخمسة تحدث الغفلة**

و ما بين الصلاتين تحدث للعبد الغفلة و الجفوة و  
القسوة ، و الإعراض و الزَّلات ، و الخطايا ، فيبعده  
ذلك عن ربه ، و ينحّيه عن قربه ، فيصير بذلك كأنه  
أجنبيا من عبوديته ، ليس من جملة العبيد ، و ربما  
ألقى بيده إلى أسر العدو له فأسره ، و غله ، و قيده ،  
و حبسه في سجن نفسه و هواه .  
فحظه ضيق الصدر ، و معالجة الهموم ، و الغموم ، و  
الأحزان ، و الحسرات ، و لا يدري السبب في ذلك .  
فاقتضت رحمته ربه الرحيم الودود أن جعل له من  
عبوديته عبودية جامعة ، مختلفة الأجزاء ، و الحالات

بحسب اختلاف الأحداث التي كانت من العبد ، و  
بحسب شدَّة حاجته إلى نصيبه من كل خير من أجزاء  
تلك العبودية .

## الكلام عن الوضوء

فبالوضوء يتطهر من الأوساخ ، ويُقدم على ربّه  
متطهرا ، و الوضوء له ظاهر و باطن :  
فظاهره : طهارة البدن ، و أعضاء العبادة .  
و باطنه و سرّه : طهارة القلب من أوساخ الذنوب و  
المعاصي و أدراجه بالتوبة ؛ و لهذا يقرب تعالى بين  
التوبة و الطهارة في قوله تعالى : **{ إن الله يحب  
التّوابين و يحب المتطهرين }** [ البقرة : 222 ]  
و شرع النبي صلى الله عليه و سلم للمتطهّر أن  
يقول بعد فراغه من الوضوء أن يتشهد ثم يقول :  
"اللهم اجعلني من التّوابين ، و اجعلني من  
المتطهرين " .

فكمّل له مراتب العبدية و الطهارة ، باطنا و ظاهرا ،  
فإنه بالشهادة يتطهر من الشرك ، و بالتوبة يتطهر  
من الذنوب ، و بالماء يتطهر من الأوساخ الظاهرة .  
فشرع له أكمل مراتب الطهارة قبل الدخول على  
الله عز و جل ، و الوقوف بين يديه ، فلما طهر ظاهرا  
و باطنا ، أذن له بالدخول عليه بالقيام بين يديه و  
بذلك يخلص من الإباق .

و بمجيئه إلى داره ، و محل عبوديته يصير من جملة  
خدمه ، و لهذا كان المجيء إلى المسجد من تمام  
عبودية الصلاة الواجبة عند قوم و المستحبة عند  
آخرين .

## من تمام العبودية الذهاب للمسجد

و العبد في حال غفلته كالآبق من ربه ، قد عطل  
جوارحه و قلبه عن الخدمة التي خُلق لها فإذا جاء إليه  
فقد رجع من إباقه ، فإذا وقف بين يديه موقف و

التذلل و الانكسار ، فقد استدعى عطف سيِّده عليه ،  
و إقباله عليه بعد الإعراض عنه .

## عبودية التكبير " الله أكبر " .

و أمر بأن يستقبل القبلة - بيته الحرام - بوجهه ، و يستقبل الله عز و جل بقلبه ، لينسلخ مما كان فيه من التولي و الإعراض ، ثم قام بين يديه مقام المتذلل الخاضع للمسكين المستعطف لسيِّده عليه ، و ألقى بيديه مسلماً مستسلماً ناكس الرأس ، خاشع القلب مُطرق الطرف لا يلتفت قلبه عنه ، و طرفه عين ، لا يمنة و لا يسرة ، خاشع قد توجه بقلبه كله إليه .

و أقبل بكليته عليه ، ثم كَبَّرَه بالتعظيم و الإجلال و واطأ قلبه لسانه في التكبير فكان الله أكبر في قلبه من كلِّ شيء ، و صدَّق هذا التكبير بأنه لم يكن في قلبه شيء أكبر من الله تعالى يشغله عنه ، فإنه إذا كان في قلبه شيء يشغل به عن الله دلَّ على أن ذلك الشيء أكبر عنده من الله فإنه إذا اشتغل عن الله بغيره ، كان ما اشتغل به هو أهم عنده من الله ، و كان قوله " الله أكبر " بلسانه دون قلبه ؛ لأن قلبه مقبل على غير الله ، معظماً له ، مجلاً ، فإذا ما أطاع اللسان القلب في التكبير ، أخرجته من لبس رداء التكبر المنافي للعبودية ، و منعه من التفات قلبه إلى غير الله ، إذا كان الله عنده و في قلبه أكبر من كل شيء فمنعه حقُّ قوله : الله أكبر و القيام بعبودية التكبير من هاتين الأفتين ، اللتين هُما من أعظم الحُجب بينه و بين الله تعالى .

## عبودية الاستفتاح

فإذا قال : " سبحانك اللهم و بحمدك " و أثنى على الله تعالى بما هو أهله ، فقد خرج بذلك عن الغفلة و أهلها ، فإن الغفلة حجاب بينه و بين الله .

و أتى بالتحية و الثناء الذي يُخاطب به الملك عند  
الدخول عليه تعظيماً له و تمهيداً ، و كان ذلك تمجيذاً  
و مقدمة بين يدي حاجته .  
فكان في الثناء من آداب العبودية ، و تعظيم المعبود  
ما يستجلب به إقباله عليه ، و رضاه عنه ، و إسعافه  
بفضله حوائجه

### حال العبد في القراءة و الاستعاذة

فإذا شرع في القراءة قدّم أمامها الاستعاذة بالله من  
الشیطان الرجيم فإنه أحرص ما يكون على خُذلان  
العبد في مثل هذا المقام الذي هو أشرف مقامات  
العبد و أنفعها له في دنياه و آخرته ، فهو أحرص شيء  
على صرفه عنه ، و انتفاعه دونه بالبدن و القلب ،  
فإن عجزاً عن اقتطاعه و تعطيله عنه بالبدن اقتطع  
قلبه و عطّله ، و ألقى فيه الوسوس ليشغله بذلك  
عن القيام بحق العبودية بين يدي الرب تبارك و تعالى  
، فأمر العبد بالاستعاذة بالله منه ليسلم له مقامه بين  
يدي ربه و ليحي قلبه ، و يستنير بما يتدبره و يتفهمه  
من كلام الله سيّده الذي هو سبب حياة قلبه ، و  
نعيمه و فلاحه ، فالشیطان أحرص شيء على اقتطاع  
قلبه عن مقصود التلاوة .

و لما علم الله سبحانه و تعالى حسد العدو للعبد ، و  
تفرّغه له ، و علم عجز العبد عنه ، أمره بأن يستعيذ  
به سبحانه ، و يلتجئ إليه في صرفه عنه ، فيكتفي  
بالاستعاذة من مؤونة محاربتة و مقاومته ، و كأنه قيل  
له : لا طاقة لك بهذا العدو ، فاستعذ بي أعيذك منه ،  
و استجر بي أجيرك منه ، و أكفيك و أمنك منه .

## نصيحة ابن تيمية لابن القيم

و قال لي شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه و  
نور ضريحه يومًا : إذا هاش عليك كلب الغنم فلا  
تشتغل بمحاربتة ، و مدافعتة ، و عليك بالراعي  
فاستغث به فهو يصرف عنك الكلب ، و يكفيكه .

فإذا استعاذ الإنسان بالله من الشيطان الرجيم أبعد  
عنه .

فأفضى القلب إلى معاني القرآن ، و وقع في رياضه  
المونقة و شاهد عجائبه التي تبهر العقول ، و  
استخرج من كنوزه و ذخائره ما عين رأت و لا أذن  
سمعت و لا خطر على قلب بشر ، و كان الحائل بينه  
و بين ذلك ، النفس و الشيطان ، فإن النفس منفعة  
للشيطان ، سامعة منه ، مطيعة فإذا بَعُدَ عنها ، و  
طُرِدَ أَلَمَ بها المَلَكُ ، و ثَبَّتَها و ذَكَّرَها بما فيه سعادتها و  
نجاتها .

فإذا أخذ العبد في قراءة القرآن ، فقد قام في مقام  
مخاطبة ربّه و مناجاته ، فليحذر كل الحذر من  
التعرّض لمقتته و سخطه ، بأن يناجيه و يخاطبه ، و  
قلبه معرض عنه ، ملتفت ، إلى غيره ، فإنه يستدعي  
بذلك مقتته ، و يكون بمنزلة رجل قرّبه ملك من ملوك  
الدنيا ، و أقامه بين يديه فجعل يخاطب الملك ، و قد  
ولاه قفاه ، أو التفت عنه بوجهه يَمَنَّة و يسرة ، فهو لا  
يفهم ما يقول الملك ، فما الظن بمقت الملك لهذا .  
فما الظن بمقت الملك الحق المبين رب العالمين و  
قيوم السماوات و الأرضين .

## حال العبد في الفاتحة

فينبغي بالمصلي أن يقف عند كل آية من الفاتحة وقفة يسيرة ، ينتظر جواب ربّه له ، و كأنه يسمعه و هو يقول : " حمدني عبدي " إذا قال : **{ الحمد لله رب العالمين }** .

فإذا قال : **{ الرحمن الرحيم }** وقف لحظة ينتظر قوله : " أثنى عليّ عبدي " .  
فإذا قال : **{ مالك يوم الدين }** انتظر قوله : " مجدني عبدي " .

فإذا قال : **{ إياك نعبد وإياك نستعين }** انتظر قوله تعالى : " هذا بيني وبين عبدي " .  
فإذا قال : **{ اهدنا الصراط المستقيم }** إلى آخرها انتظر قوله : " هذا لعبدي و لعبدي ما قال " .  
و من ذاق طعم الصلاة عَلِمَ أنه لا يقوم مقام التكبير و الفاتحة غيرهما مقامها ، كما لا يقوم غير القيام و الركوع و السجود مقامها ، فلكلّ عبوديته من عبودية الصلاة سرٌّ و تأثيرٌ و عبودية لا تحصل في غيرها ، ثم لكل آية من آيات الفاتحة عبودية و ذوق و وجد يخصّها لا يوجد في غيرها .

فعند قوله : **{ الحمد لله رب العالمين }** تجد تحت هذه الكلمة إثبات كمال للرب و وصفا و اسما ، و تنزيهه سُبحانه و بحمده عن كلّ سوء ، فعلاً و وصفاً و اسماً ، و إنما هو محمود في أفعاله و أوصافه و أسمائه ، مُنزه عن العيوب و النقائص في أفعاله و أوصافه و أسمائه .

فأفعاله كلّها حكمة و رحمة و مصلحة و عدل و لا تخرج عن ذلك ، و أوصافه كلّها أوصاف كمال ، و نعوت جلال ، و أسماؤه كلّها حُسنى .

## من معاني الحمد

و حمده تعالى قد ملأ الدنيا و الآخرة ، و السموات و الأرض ، و ما بينهما و ما فيهما ، فالكون كله ناطق بحمده ، و الخلق و الأمر كله صادر عن حمده ، و قائم بحمده ، و وجوده و عدمه بحمده ، فحمدُه هو سبب وجود كل شيء موجود ، و هو غاية كل موجود ، و كل موجود شاهد بحمده ، فأرساله رسله بحمده ، و إنزاله كتبه بحمده ، و الجنة عُمرت بأهلها بحمده ، و النار عُمرت بأهلها بحمده ، كما أنها إنما وجدت بحمده .

و ما أُطيع إلا بحمده ، و ما عُصي إلا بحمده ، و لا تسقط ورقة إلا بحمده ، و لا يتحرك في الكون ذرّة إلا بحمده ، فهو سبحانه و تعالى المحمود لذاته ، و إن لم يحمده العباد .

كما أنه هو الواحد الأحد ، و إن لم يوحدّه العباد ، و هو الإله الحقّ و إن لم يؤلّهه ، سبحانه هو الذي حمّد نفسه على لسان الحامد كما قال النبي صلى الله عليه و سلم : " إن الله تعالى قال على لسان نبيه : سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ " .

فهو الحامدُ لنفسه في الحقيقة على لسان عبده ، فإنه هو الذي أجري الحمدَ على لسانه و قلبه ، و أجرأه بحمده فله الحمد كله ، و له الملك كله ، و بيده الخير كله ، و إليه يرجع الأمر كله ، علانيته و سره .

فهذه المعرفة نبذة يسيرة من معرفة عبودية الحمد ، و هي نقطة من بحر لَجِّي من عبوديته .

و من عبوديته أيضا : أن يعلم أن حمده لربه نعمة منه عليه ، يستحق عليها الحمد ، فإذا حمده عليها استحق على حمده حمداً آخر ، وهلم جرا .

فالعبد و لو استنفد أنفاسه كلها في حمد ربه على نعمة من نعمه ، كان ما يجب عليه من الحمد عليها فوق ذلك ، و أضعاف أضعافه ، و لا يُحصي أحد البتة ثناءً عليه بمحتمده ، و لو حمده بجميع المحامد فالعبد سائر إلى الله بكل نعمة من ربه ، يحمده عليها ، فإذا حمده على صرفها عنه ، حمده على إلهامه الحمد .  
قال الأوزاعي : " سمعت بعض قوَّال ينشد في حمام لك الحمدُ إمَّا على نعمةٍ و إمَّا على نقمة تُدفع " .

**و من عبودية الحمد :** شهود العبد لعجزه عن الحمد ، و أن ما قام به منه ، فالرب سبحانه هو الذي ألهمه ذلك ، فهو محمود عليه ، إذ هو الذي أجره على لسانه و قلبه ، و لولا الله ما اهتدى أحد .

**و من عبودية الحمد :** تسليط الحمد على تفاصيل أحوال العبد كلها ظاهرها و باطنها على ما يحب للعبد منها و ما يكره ، بل على تفاصيل أحوال الخلق كلهم ، برَّهم و فاجرهم ، علويهم و سفليهم ، فهو سبحانه المحمود على ذلك كله في الحقيقة ، و إن غاب عن شهود العبد حكمة ذلك ، و ما يستحق الرب تبارك و تعالى من الحمد على ذلك و الحمد لله : هو إلهام من الله للعباد ، فمستقل و مستكثر على قدر معرفة العبد بربه .

و قد قال النبي صلى الله عليه و سلم في حديث الشفاعة : " فأقع ساجداً فيلهمني الله محامداً أحمده بها لم تخطر على بالي قط " .

## عبودية { رَبِّ الْعَالَمِينَ }

ثم لقول العبد : : **{ رَبِّ الْعَالَمِينَ }** من العبودية شهود تفرّده سبحانه بالربوبية وحده ، و أنّه كما أنه رب العالمين ، و خالقهم ، و رازقهم ، و مدبّر أمورهم ، و موجدهم ، و مغنيهم ، فهو أيضا وحده إلههم ، و معبودهم ، و ملجأهم و مفرّجهم عند النوائب ، فلا ربّ غيره ، و لا إله سواه.

## عنوان : عبودية **{ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }**

و لقوله : **{ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }** عبودية تخصه سبحانه ، و هي شهود العبد عموم رحمته .  
و شمولها لكلّ شيء ، و سعتها لكلّ مخلوق و أخذ كلّ موجود بنصيبه منها ، و لاسيما الرحمة الخاصّة بالعبد و هي التي أقامته بين يدي ربه : أقم قلانا - ففق بعض الآثار أن جبرائيل يقول كل ليلة أقم فلانا ، و أنم فلانا فبرحمته للعبد أقامه في خدمته يناجيه بكلامه ، و يتملقه و يسترحمه و يدعوه و يستعطفه و يسأله هدايته و رحمته ، و تمام نعمته عليه دنياه و آخراه فهذا من رحمته بعبده ، فرحمته وسعت كل شيء ، كما أن حمده وسع كل شيء ، و علمه وسع كل شيء ، **{ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا }** ، [ غافر : 7 ] ، و غيره مطرود محروم قد فاتته هذه الرحمة الخاصّة فهو منفي عنها.

## عنوان عبودية **{ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ }**

و يعطى قوله **{ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ }** عبوديته من الذلّ و الانقياد ، و قصد العدل و القيام بالقسط ، و كفّ العبد نفسه عن الظلم و المعاصي ، و ليتأمل ما تضمنته من إثبات المعاد و تفرّد الربّ في ذلك

بالحكم بين خلقه ، و أنه يومٌ يدين الله فيه الخلق  
بأعمالهم من الخير و الشر ، و ذلك من تفاصيل  
حمده ، و موجهه كما قال تعالى : **{ و قُضِيَ بَيْنَهُم  
بِالْحَقِّ و قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }** [الزمر:  
75].

و يروى أن جميع الخلائق يحمدونه يومئذ أهل الجنة و  
أهل النار ، عدلا و فضلا ، و لما كان قوله **{ الحمد  
لله رب العالمين }** .  
إخبارا عن حمد عبده له قال : حمدني عبدي .

### ما معنى ( الثناء ) ( التمجيد )

و لما كان قوله **{ الرحمن الرحيم }** إعادة و  
تكريرا لأوصاف كماله قال : " أثنى عليَّ عبدي " ،  
فإن الثناء إنما يكون بتكرار المحامد ، و تعداد أوصاف  
المحمود ، فالحمد ثناء عليه ، و **{ الرحمن الرَّحِيم }**  
{ وصفه بالرحمة .

و لما وصف العبد ربه بتفردِه بملك يوم الدين و هو  
الملك الحق ، مالك الدنيا و الآخرة ؛ و ذلك متضمَّن  
لظهور عدله ، و كبريائه و عظمته ، و وحدانيته ، و  
صدق رُسله ، سمَّى هذا الثناء مجداً فقال : " مجَّدني  
عبدي " فإن التمجيد هو : الثناء بصفات العظمة ، و  
الجلال ، و العدل ، و الإحسان .

### عبودية { إِيَّاكَ نَعْبُدُ }

فإذا قال : **{ إِيَّاكَ نَعْبُدُ و إِيَّاكَ نَسْتَعِين }** انتظر  
جواب ربه له : " هذا بيني و بين عبدي ، و لعبدي ما  
سأل " .

و تأمل عبودية هاتين الكلمتين و حقوقهما ، و ميِّز  
الكلمة التي لله سبحانه و تعالى ، و الكلمة التي للعبد  
، و فِيقِه سرٌّ كون إحداهما لله ، و الأخرى للعبد ، و

مَيِّز بين التوحيد الذي تقتضيه كلمة **{ إِيَّاكَ نَعْبُدُ }** و التوحيد الذي تقتضيه كلمة **{ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }** ، و فِقه سرّ كون هاتين الكلمتين في وسط السورة بين نوعي الثناء قبلهما ، و الدعاء بعدهما ، و فِقه تقديم **{ إِيَّاكَ نَعْبُدُ }** على **{ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }** ، و تقديم المعمول على العامل مع الإتيان به مؤخراً أوجز و أخضر ، و سرّ إعادة الضمير مرّة بعد مرة .

### تقديم العبادة على الاستعانة

قلت : أراد تقديم العبادة - و هي العمل - على الاستعانة ، فالعبادة لله و الاستعانة للعبد ، فالله هو المعبود ، و هو المستعان على عبادته ، فإياك نعبد ؛ أي إياك أريد بعبادتي ، و هو يتضمن العمل الصالح الخالص ، و العلم النافع الدال على الله ، معرفة و محبة ، و صدقا و إخلاصاً ، فالعبادة حق الرب تعالى على خلقه ، و الاستعانة تتضمن استعانة العبد بربه على جميع أموره ، و هي القول المتضمن قسم العبد .

فكل عبادة لا تكون لله و بالله فهي باطلة مضمحلة ، و كل استعانة تكون بالله وحده فهي خذلانٌ و ذل .

و تأمل علم ما ينفع العباد و ما يدفع عنهم كل واحدٍ من هاتين الكلمتين من الآفة المنافية للعبودية نفعاً و دفعاً و كيف تدخل العبد هاتان الكلمتان في صريح العبودية .

## القرآن مداره على هذه الكلمة

و تأمل علم كيف يدور القرآن كله من أوله إلى آخره عليهما ، و كذلك الخلق ، و الأمر و الثواب و العقاب و الدنيا و الآخرة ، و كيف تضمّنتا لأجل الغايات ، و أكمل الوسائل ، و كيف أتى بهما بضمير المخاطب الحاضر ، دون ضمير الغائب ، و هذا موضوع يستدعي كتاباً كبيراً ، و لولا الخروج عمّا نحن بصدده لأوضحناه و بسطناه ، فمن أراد الوقوف عليه فقد ذكرناه في كتاب : "مراحل السائرين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين " و في كتاب " الرسالة المصرية " .

## ضرورة العبد لقوله {اهدنا الصراط المستقيم}

ثم ليتأمل العبد ضرورته و فاقتة إلى قوله { اهدنا الصراط المستقيم } الذي مضمونه معرفة الحق ، و قصده و إرادته و العمل به ، و الثبات عليه ، و الدعوة إليه ، و الصبر على أذى المدعو إليه فباستكمال هذه المراتب الخمس يستكمل العبد الهداية و ما نقص منها نقص من هدايته . و لما كان العبد مفتقراً إلى هذه الهداية في ظاهره و باطنه ، بل و في جميع ما يأتيه ، و يذره من :

## أنواع الهدايا التي يفتقر لها العبد

- أمور فعلها على غير الهداية علماً و عملاً و إرادة ، فهو محتاج إلى التوبة منها و توبته منها هي من الهداية .
- و أمور قد هُدي إلى أصلها دون تفصيلها فهو محتاج إلى هداية تفاصيلها .

- و أمور قد هُدي إليها من وجهٍ دون وجهٍ ، فهو محتاجٌ إلى تمام الهداية في كمالها على الهدى المستقيم ، و أن يزداد هدي إلى هداه.
- و أمور هو محتاج فيها إلى أن يحصل له من الهداية في مستقبلها مثل ما حصل له في ماضيها.
- و أمور هو خال عن اعتقاد فيها فهو محتاج إلى الهداية فيها اعتقاداً صحيحاً.
- و أمور يعتقد فيها خلاف ما هي عليه ، فهو محتاج إلى هداية تنسخ من قلبه ذلك الاعتقاد الباطل ، و تُثبت فيه ضده.
- و أمور من الهداية : هو قادر عليها ، و لكن لم يخلق له إرادة فعلها ، فهو محتاج في تمام الهداية إلى خلق إرادة.
- و أمور منها : هو غير قادر على فعلها مع كونه مرید لها ، فهو محتاج في هدايته إلى إقدار عليها.
- و أمور منها : هو غير قادر عليها و لا مرید لها ، فهو محتاج إلى خلق القدرة عليها و الإرادة لها لتتم له الهداية.
- و أمور : هو قائم بها على وجه الهداية اعتقاداً و إرادة ، و علماً و عملاً ، فهو محتاج إلى الثبات عليها و استدامتها ، فكانت حاجته إلى سؤال الهداية أعظم الحاجات ، و فاقتة إليها أشد الفاقات ، و لهذا فرض عليه الرب الرحيم هذا السؤال على العبيد كل يوم و ليلة في أفضل أحواله ، و هي الصلوات الخمس ، مرات متعددة ، لشدة ضرورته و فاقتة إلى هذا المطلوب.

• ثم بيّن أن سبيل أهل هذه الهداية مغاير لسبيل أهل الغضب و أهل الضلال ، و هو اليهود ، و النصارى و غيرهم .

فانقسم الخلق إذن إلى ثلاثة أقسام بالنسبة إلى هذه الهداية :

مُنعم عليه : بحصولها له و استمرارها و حظه من المنعم عليهم ، بحسب حظه من تفاصيلها و أقسامها .  
**و ضالٌّ** : لم يُعطَ هذه الهداية و لم يُوفق لها .  
**و مغضوب عليه** : عَرَفها و لم يوفق للعمل بموجبها .

**فالضال** : حائد عنها ، حائر لا يهتدي إليها سبيلاً .  
**و المغضوب عليه** : متحيرٌ منحرف عنها ؛ لانحرافه عن الحق بعد معرفته به مع علمه بها .  
فالأول المنعم عليه قائم بالهدى ، و دين الحق علماً و عملاً و اعتقاداً و الضال عكسه ، منسلخ منه علماً و عملاً .

و المغضوب عليه لا يرفع فيها رأساً ، عارف به علماً منسلخ عملاً ، و الله الموفق للصواب .  
و لولا أن المقصود التنبيه على المضادة و المنافرة التي بين ذوق الصلاة ، و ذوق السماع ، لبسطنا هذا الموضوع بسطاً شافياً ، و لكن لكلِّ مقام مقال ، فلنرجع إلى المقصود .

## **عبودية التأمين ورفع اليدين**

و شرع له التأمين في آخر هذا الدعاء تفاعلاً بإجابته ، و حصوله ، و طابعاً عليه ، و تحقيقاً له ، و لهذا اشتد حسدُ اليهود للمسلمين عليه حين سمعُوهم يجهرون به في صلاتهم .

ثم شرع له رفع اليدين عند الركوع تعظيماً لأمر الله ،  
و زينةً للصلاة ، و عبودية خاصةً لليدين كعبودية باقي  
الجوارح ، و اتباعاً لسنة رسول الله صلى الله عليه و  
سلم فهو حلية الصلاة ، و زينتها و تعظيمٌ لشعائرها .  
ثم شرع له التكبير الذي هو في انتقالات الصلاة من  
رُكن إلى ركن ، كالتلبية في انتقالات الحاج ، من  
مشعر إلى مشعر ، فهو شعار الصلاة ، كما أن التلبية  
شعار الحج ، (مميز ليعلم أن سر الصلاة هو تعظيم  
الرب تعالى و تكبيره بعبادته وحده . )

### عبودية الركوع

ثم شرع له بأن يخضع للمعبود سبحانه بالركوع  
خضوعاً لعظمة ربه ، و استكانة لهيبته و تذلاً لعزته .  
فثناء العبد على ربه في هذا الركن ؛ هو أن يحني له  
صلبه ، و يضع له قامته ، و ينكس له رأسه ، و يحني  
له ظهره ، و يكبره مُعظماً له ، ناطقاً بتسبيحه ،  
المقترن بتعظيمه .

فاجتمع له خضوع القلب ، و خضوع الجوارح ، و  
خضوع القول على أتم الأحوال ، و يجتمع له في هذا  
الركن من الخضوع و التواضع و التعظيم و الذكر ما  
يفرق به بين الخضوع لربه ، و الخضوع للعبيد بعضهم  
لبعض ، فإنَّ الخضوع وصف العبد ، و العظمة وصف  
الرب .

و تمام عبودية الركوع أن يتصاغر الراكع ، و يتضاءل  
لربه ، بحيث يمحو تصاغره لربه من قلبه كلَّ تعظيم  
فيه لنفسه ، و لخلقه و يثبت مكانه تعظيمه ربه وحده  
لا شريك له .

## إذا عَظَّمَ القلبُ الربَّ خرج تعظيم الخلق

و كلما استولى على قلبه تعظيم الربِّ ، و قوى خرج منه تعظيم الخلق ، و ازداد تصاغره هو عند نفسه فالركوع للقلب بالذات ، و القصد و الجوارح بالتبع و التكملة .

ثم شرع له أن يحمد ربه ، و يثني عليه بآلائه عند اعتداله و انتصابه و رجوعه إلى أحسن هيئاته ، منتصب القامة معتدلاً فيحمد ربه و يثني عليه بآلائه عند اعتداله و انتصابه و رجوعه إلى أحسن تقويم ، بأن وفقه و هداه لهذا الخضوع الذي قد حرمه غيره .

## عبودية القيام

ثم نقله منه إلى مقام الاعتدال و الاستواء ، واقفا في خدمته ، بين يديه كما كان في حالة القراءة في ذلك ، و لهذا شرع له من الحمد و المجد نظير ما شرع له من حال القراءة في ذلك .

و لهذا الاعتدال ذوقٌ خاص و حال يحصل للقلب ، و يخصه سوى ذوق الركوع و حاله ، و هو ركنٌ مقصود لذاته كركن الركوع و السجود سواء .

و لهذا كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يُطيلُهُ كما يطيل الركوع و السجود ، و يُكثر فيه من الثناء و الحمد و التمجيد ، كما ذكرناه في هديه صلى الله عليه و سلم في صلاته و كان في قيام الليل يُكثر فيه من قول : " لربي الحمد ، لربي الحمد " و يكررها .

## عبودية السجود

ثم شرع له أن يكبر و يدنو و يختر ساجداً ، و يُعطي في سجوده كل عضو من أعضائه حظه من العبودية ، فيضع ناصيته بالأرض بين يدي ربه ، مسندة راغماً له أنفه ، خاضعا له قلبه ، و يضع أشرف ما فيه - و هو وجهه - بالأرض و لاسيما وجه قلبه مع وجهه الظاهر ساجدا على الأرض معقراً له وجهه و أشرف ما فيه بين يدي سيده ، راغماً أنفه ، خاضعاً له قلبه و جوارحه ، متذلاً لعظمة ربه ، خاضعاً لعزته ، منيباً إليه ، مستكيناً ذلاً و خضوعاً و انكساراً ، قد صارت أعاليه ملوية لأسافله.

و قد طابق قلبه في ذلك حال جسده ، فسجد القلب للرب كما سجد الجسد بين يدي الله ، و قد سجد معه أنفه و وجهه ، و يداه و ركبته ، و رجلاه فهذا العبد هو القريب المقرَّب فهو أقرب فهو ما يكون من ربه و هو ساجد .

و شرع له أن يُقلَّ فخذيته عن ساقيه ، و بطنه عن فخذيته و عَصْدِيته عن جنبيه ، ليأخذ كل جزءٍ منه حظه من الخضوع لا يحمل بعضه بعضاً .

فأحر به به في هذه الحال أن يكون أقرب إلى ربه منه في غيرها من الأحوال كلها ، كما قال النبي صلى الله عليه و سلم : " أقربُّ ما يكونُ العبدُ من ربه و هو ساجدٌ " . [رواه مسلم (482) عن أبي هريرة رضي الله عنه ] .

و لما كان سجود القلب خضوعه التام لربه أمكنه استدامة هذا السجود إلى يوم القيامة ، كما قيل لبعض السلف :

هل يسجد القلب ؟

## الصلاة مبناها على خمسة أركان

قال : " أي و الله سجدةً لا يرفع رأسه منها حتى يلقى الله عزَّ وجل " . [هذا القول عزاه ابن تيمية لسهل بن عبد الله التستري كما في مجموع الفتاوى (21/287) (23/138) ]

إشارة إلى إخبات القلب ، و ذلّه ، و خضوعه ، و تواضعه و إنابته و حضوره مع الله أينما كان ، و مراقبته له في الخلاء و الملا ، و لما بنيت الصلاة على خمس : القراءة و القيام و الركوع و السجود و الذكر

سمّيت باسم كل واحد من هذه الخمس :  
فسمّيت " قياماً " لقوله : { **قُمِ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلاً** }  
[المزمل :2] ، و قوله : { **وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ** }  
[البقرة :238].

و "قراءة" لقوله : { **وَقِرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً** } [الإسراء :78] ،  
{ **فَاقْرءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ** } [المزمل :48].  
و سمّيت " ركوعاً " لقوله : { **وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّآكِعِينَ** } [البقرة :43] ، { **وَ إِذَا قِيلَ لَهُم ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ** } [المراسلات :48].  
و " سجوداً " لقوله : { **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ** } [الحجر : 98] ، وقوله { **وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ** } [العلق :19].  
و "ذكراً" لقوله : { **فَاسْعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ** }  
[الجمعة :9] ، { **لَا تُلْهَكُمُ أَمْوَالُكُمْ وَ لَا أَوْلَادُكُمْ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ** } [المنافقون :9].

و أشرف أفعالها السجود ، و أشرف أذكارها القراءة ، و أول سورة أنزلت على النبي صلى الله عليه و سلم سورة { **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ** } افتتحت بالقراءة

، و خُتِمت بالسجود ، فوضعت الركعة على ذلك ،  
أولها قراءة و آخرها سجود.

### حال العبد بين السجدين

ثم شرع له أن يرفع رأسه ، و يعتدل جالساً ، و لما  
كان هذا الاعتدال محفوفا بسجودين ؛ سجود قبله ، و  
سجود بعده ، فينتقل من السجود إليه ، ثم منه إلى  
السجود الآخر ، كان له شأن ، فكان رسول الله صلى  
الله عليه و سلم يطيل الجلوس بين السجدين بقدر  
السجود يتضرع إلى ربه فيه ، و يدعوه و يستغفره ، و  
يسأله رحمته ، و هدايته و رزقه و عافيته ، و له ذوق  
خاص ، و حال للقلب غير ذوق السجود و حالهن ؛  
فالعبد في هذا القعود يتمثل جاثياً بين يدي ربه ، مُلقياً  
نفسه بين يديه ، مُعتذراً إليه مما جناه ، راغباً إليه أن  
يغفر له و يرحمه ، مستعدياً له على نفسه الأمانة  
بالسوء.

### لماذا الاستغفار بين السجدين

و قد كان النبي صلى الله عليه و سلم يكرر الاستغفار  
في هذه الجلسة فيقول : " رب اغفر لي ، رب اغفر  
لي ، رب اغفر لي " ، و يكثر من الرغبة فيها إلى ربه .  
فتمثل أيها المصلي نفسك فيها بمنزلة غريم عليه حق  
، و أنت كفيل به ، و الغريم مماطل مخادع ، و أنت  
مطلوب بالكفالة ، و الغريم مطلوب بالحق ، فأنت  
تستعدي عليه حتى تستخرج ما عليه من الحق ؛  
لتخلص من المطالبة ، و القلب شريك النفس في  
الخير و الشر ، و الثواب و العقاب ، و الحمد و الذم .  
و النفس من شأنها الإباق و الخروج من رقِّ العبودية ،  
و تضييع حقوق الله عو و جل و حقوق العباد التي

قبلها ، و القلب شريكها إن قوي سلطانها و أسيرها ،  
و هي شريكته و أسيرته إن قوي سلطانه .  
فشرع للعبد إذا رفع رأسه من السجود أن يجثو بين  
يدي الله تعالى مستعديا على نفسه ، معذرا من ذنبه  
إلى ربه و مما كان منها ، راغبا إليه أن يرحمه و يغفر  
له و يرحمه و يهديه و يرزقه و يعافيه ، ز هذه الخمس  
كلمات ، قد جمعت جماع خير الدنيا و الآخرة فإن  
العبد محتاج بل مضطر إلى تحصيل مصالحه في  
الدنيا و في الآخرة ، و دفع المضار عنه في الدنيا و  
الآخرة ، و قد تضمن هذا الدعاء ذلك كله .  
فإن الرزق يجلب له مصالح دنياه و أخراه و يجمع  
رزق بدنه و رزق قلبه و روحه ، و هو أفضل الرازقين .  
و العافية تدفع مضارها .  
و الهداية تجلب له مصالح أخراه .  
و المغفرة تدفع عنه مضار الدنيا و الآخرة .  
و الرحمة تجمع ذلك كله . و الهداية تعم تفاصيل  
أموره كلها .

و شرع له أن يعود ساجداً كما كان ، و لا يكتفي منه  
بسجدة واحدة في الركعة كما اكتفى منه بركوع واحد  
؛ و ذلك لفضل السجود و شرفه و قرب العبد من ربه  
و موقعه من الله عز و جل ، حتى إنه أقرب ما يكون  
إلى ربه و هو ساجد ، و هو أشهر في العبودية و أعرق  
فيها من غيره من أركان الصلاة ؛ و لهذا جعل خاتمة  
الركعة ، و ما قبله كالمقدمة بين يديه ، فمحل من  
الصلاة محل طواف الزيارة ، و كما أنه أقرب ما  
يكون العبد من ربه و هو ساجد ، فكذلك أقرب ما  
يكون منه في المناسك و هو طائف كما قال ابن عمر  
لمن خطب ابنته و هو في الطواف فلم يرد عليه فلما

فرغ من الطواف قال : أتذكر أمراً من أمور الدنيا و  
نحن نتراءى لله سبحانه و تعالى في طوافنا.  
و لهذا و الله أعلم ، جُعل الركوع قبل السجود تدريجاً  
و انتقالاً من الشيء إلى ما هو أعلى منه.

## لماذا يكرر السجود مرتان

و سُرع له تكرير هذه الأفعال و الأقوال ؛ إذ هي غذاء القلب و الروح التي لا قوام لهما إلا بها ، فكان تكريرها بمنزلة تكرير الأكل لقمة بعد لقمة حتى يشبع ، و الشرب نفسا بعد نفس حتى يَروى ، فلو تناول الجائع لقمة واحدة ثم دفع الطعام من بين يديه فماذا كانت يغني عنه تلك اللقمة ؟ و ربما فتحت عليه باب الجوع أكثر مما به ؛ و لهذا قال بعض السلف : " مثل الذي يصلي و لا يطمئن في صلاته كمثل الجائع إذا قدم إليه طعام فتناول منه لقمة أو لقمتين ماذا تغني عنه ذلك ".

و في إعادة كل قول أو فعل من العبودية و القرب ، و تنزيل الثانية منزلة الشكر على الأولى ، و حصول مزيد خير و إيمان من فعلها ، و معرفة و إقبال و قوة قلب ، و انشراح صدر و زوال درن و وسخٍ عن القلب بمنزلة غسل الثوب مرّة بعد مرّة .

فهذه حكمة الله التي بهّرت العقول حكمته في خلقه و أمره ، و دلّت على كمال رحمته و لطفه ، و ما لم تحط به علما منها أعلى و أعظم و أكبر و إنما هذا يسير من كثير منها.

فلما قضى صلاته و أكملها و لم يبق إلا الانصراف منها ، فشرع الجلوس في آخرها بين يدي ربه مُثنياً عليه بما هو أهله ، فأفضل ما يقول العبد في جلوسه هذه التحيات التي لا تصلح إلا لله ، و لا تليق بغيره.

## عبودية الجلوس للتشهد و معنى التحيات

و لما كان من عادة الملوك أن يحيوا بأنواع التحيات من الأفعال و الأقوال المتضمنة للخضوع لهم ، و الذل ، و الثناء عليهم و طلب البقاء ، و الدوام لهم ، و أن يدوم ملكهم .

فمنهم : من يحيي بالسجود و منهم من يحيي بالثناء عليه

و منهم : من يحيي بطلب البقاء ، و الدوام له .

و منهم : من يجمع له ذلك كله فيسجد له ، ثم يثني عليه ، ثم يدعي له بالبقاء و الدوام .

و كان الملك الحق المبين ، الذي كل شيء هالك إلا وجهه سبحانه أولى بالتحيات كلها من جميع خلقه ، و هي له بالحقيقة و هو أهلها ؛ و لهذا فسرت التحيات بالملك ، و فسرت بالبقاء و الدوام ، و حقيقتها ما ذكرته ، و هي تحيات المُلْك و المَلِك و المليك .

فالله سبحانه هو المتصف بجميع ذلك ، فهو أولى به فهو سبحانه المَلِك ، و له المُلْك ، فكل تحية تحي بها ملك من سجود أو ثناء ، أو بقاء ، أو دوام فهي لله على الحقيقة ؛ و لهذا أتى بها مجموعة معرّفة بالألف و اللام إرادة للعموم ، و هي جمع تحية ، تحيا بها

الملوك ، و هي " تُفَعِّلَة " من الحياة ، و أصلها "

تحية " على وزن " تكريمه " ، ثم أدغم إحدى اليائين في الآخر فصارت " تحيَّة " فإذا كان أصلها من الحياة ، و المطلوب منها لمن تحي بها دوام الحياة ، كما

كانوا يقولون لملوكهم :

لك الحياة الباقية ، و لك الحياة الدائمة .

و بعضهم يقول : عش عشرة آلاف سنة .

و اشتق منها :

أدام الله أيامك أو أيامه ، و أطال الله بقاءك .

و نحو ذلك مما يراد به دوام الحياة و الملك ، فذلك  
جميعه لا ينبغي إلا لله الحي القيوم الذي لا يموت .  
الذي كل مَلِكٍ سواه يموت ، و كل مُلْكٍ سوى ملكه  
زائل .

## عطف الصلوات و الطيبات

ثم عطف عليها الصلوات بلفظ الجمع و التعريف ؛  
ليشمل ذلك كلما أطلق عليه لفظ الصلاة خصوصا و  
عموماً ، فكلها لله و لا تنبغي إلا له ، فالتحيات له ملكاً  
، و الصلوات له عبودية و استحقاقاً ، فالتحيات لا  
تكون إلا لله ، و الصلوات لا تنبغي إلا له .  
ثم عطف عليها بالطيبات ، و هذا يتناول أمرين :

الوصف و الملك .  
فأما الوصفُ : فإنه سبحانه طيبٌ ، و كلامه طيبٌ ، و  
فعله كله طيبٌ ، و لا يصدر منه إلا طيبٌ ، و لا يضاف  
إليه إلا الطيبٌ ، و لا يصعد إليه إلا الطيبٌ .

## معنى الطيبات

فالطيبات له وصفاً و فعلاً و قولاً و نسبةً ، و كلُّ  
طيبٍ مضاف إليه طيبٌ ، فله الكلمات الطيبات و  
الأفعال ، و كلُّ مضاف إليه كبيته و عبده ، و روحه و  
ناقته ، و جنته دار الطيبين ، فهي طيبات كلها ، و أيضاً  
فمعاني الكلمات الطيبات لله وحده ، فإنها تتضمن  
تسبيحه ، و تجميده ، و تكبيره ، و تمجيده ، و الثناء  
عليه بالآئه و أوصافه ؛ فهذه الكلمات الطيبات التي  
يثنى عليه بها ، و معانيها له وحده لا شريك له ؛  
كسبحانك اللهم و بحمدك و تبارك اسمك و تعالى  
جدك و لا إله غيرك .

و كسبحان الله و الحمد لله ، و لا إله إلا الله ، و الله أكبر.

و سبحان الله و بحمده ، سبحان الله العظيم ، و نحو ذلك . و كلُّ طَيِّبٍ له و عنده و منه و إليه ، و هو طَيِّبٌ لا يقبل إلا طَيِّباً ، و هو إله الطيبين و ربهم ، و جيرانه في دار كرامته ، هم الطيبون.

### أطيب الكلام بعد القرآن

فتأمل أطيب الكلمات بعد القرآن ، كيف لا تنبغي إلا لله ؟ و هي : سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر و لا حول و لا قوة إلا بالله ، فإن " سبحان الله " تتضمن تنزيهه عن كل نقص و عيب و سوء عن خصائص المخلوقين و شبههم.

و " الحمد لله " تتضمن إثبات كلِّ كمال له قولاً ، و فعلاً ، و وصفاً على أتم الوجوه ، و أكملها أزلاً و أبداً .

و " لا إله إلا الله " تتضمن انفراده بالإلهية ، و أن كل معبود سواه باطل ، و أنه وحده الإله الحق ، و أن من تأله غيره فهو بمنزلة من اتخذ بيتاً من بيوت العنكبوت ، ياوي إليه ، و يسكنه من الحرِّ و البرد ، فهل يغني عنه ذلك شيئاً .

و " الله أكبر " تتضمن أنه أكبر من كلِّ شيء ، و أجل ، و اعظم ، و أعز و أقوى و أمتع ، و أقدر ، و اعلم ، و أحكم ، فهذه الكلمات لا تصح هي و معانيها إلا لله وحده.

## عبودية التَّسليم على الأنبياء و الصالحين

ثم شرع له أن يسلم على سائر عباد الله الصالحين ،  
و هم عباده الذين اصطفى بعد الثناء ، و تقديم الحمد  
له فطابق ذلك قوله : **{ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلَامٌ  
عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ }** [النمل : 59] ، و  
كأنه امتثال له ، و أيضا فإن هذا تحية المخلوق  
فشرعت بعد تحية الخالق و قدم في هذه التحية أولى  
الخلق بها و هو النبي صلى الله عليه و سلم ، الذي  
نالت أمته على يده كل خير ، و على نفسه ، و بعده و  
على سائر عباد الله الصالحين ، و أخصهم بهذه التحية  
الأنبياء و الملائكة ، ثم أصحاب محمد صلى الله عليه  
و سلم ، و أتباع الأنبياء مع عمومها كل عبد صالح في  
السماء و الأرض .  
ثم شرع له بعد هذه التحية السلام على من يستحق  
السلام عليه خصوصا و عموماً .

## معنى الشهادتين في التحيات

ثم شرع له أن يشهد شهادة الحق التي بنيت عليها  
الصلاة ، و الصلاة حق من حقوقها ، و لا تنفعه إلا  
بقرينتها و هي الشهادة للرسول صلى الله عليه و  
سلم بالرسالة ، و ختمت بها الصلاة كما قال عبد الله  
بن مسعود : " فإذا قلت ذلك فقد قضيت صلاتك ،  
فإن شئت فقم و إن شئت فاجلس " .  
و هذا إما أن يحمل على انقضائها إذا فرغ منه حقيقة  
، كما يقوله الكوفيون ، او على مقاربة انقضائها و  
مشارفته ، كما يقول أهل الحجاز و غيرهم ، و على  
التقديرين فجعلت شهادة الحق خاتمة الصلاة . كما  
شرع أن تكون هي خاتمة الحياة .  
"فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة " .

و كذلك شرع للمتوضئ أن يختتم وضوءه بالشهادتين ، ثم لما قضى صلاته أذن له أن يسأل حاجته .

### الصلاة على النبيِّ

و شرع له أن يتوسل قبلها بالصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم ، فإنها من أعظم الوسائل بين يدي الدعاء ، كما في السنن عن فضالة بن عبيد أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : " إذا دعا أحدكم فليبدأ بحمد الله ، و الثناء عليه ، و ليصل على رسوله ثم ليسل حاجته " .

ثم جعل الدعاء لآخر الصلاة كالختم عليها . فجاءت التحيات على ذلك ، أولها حمدُ لله ، و الثناء عليه ثم الصلاة على رسوله ثم الدعاء آخر الصلاة ، و أذنَ النبي صلى الله عليه و سلم للمصلي بعد الصلاة عليه أن يتخير من المسألة ما يشاء .

### سنن الأذان الخمس

و نظير هذا ما شرع لمن سمع الأذان : أن يقول كما يقول المؤذن . و أن يقول رضيت بالله ربا ، و بالإسلام ديننا ، و بمحمد رسولا .

و أن يسأل الله لرسوله الوسيلة و الفضيلة ، و أن يبعثه المقام المحمود .

ثم ليصل عليه .

ثم يسأل حاجته .

فهذه خمس سنن في إجابة المؤذن لا ينبغي الغفلة عنها .

# فصل

## سر الصلاة الإقبال على الله

و سرُّ الصلاة و روحها و لبُّها ، هو إقبال العبد على الله بكلِّيته فيها ، فكما أنه لا ينبغي أن يصرف وجهه عن القبلة إلى غيرها فيها ، فكذلك لا ينبغي له أن يصرف قلبه عن ربِّه إلى غيره فيها .  
بل يجعل الكعبة - التي هي بيت الله - قبلة وجهه و بدنه ، و رب البيت تبارك و تعالى قبلة قلبه و روحه ، و على حسب إقبال العبد على الله في صلاته ، يكون إقبال الله عليه ، و إذا أعرضَ أعرضَ الله عنه ، كما تدين تُدان .

## للإقبال على الله في الصلاة ثلاث منازل

و الإقبال في الصلاة على ثلاثة منازل :  
\* إقبال العبد على قلبه فيحفظه و يصلحه من أمراض الشهوات و الوسوس ، و الخطرات المُبطلة لثواب صلاته أو المنقصة لها .  
\* **و الثاني :** إقباله على الله بمراقبته فيها حتى يعبده كأنه يراه .  
\* **و الثالث :** إقباله على معاني كلام الله ، و تفاصيله و عبودية الصلاة ليعطيها حقها من الخشوع و الطمانينة و غير ذلك .  
فباستكمال هذه المراتب الثلاث يكون قد أقام الصلاة حقاً ، و يكون إقبال الله على المصلي بحسب ذلك .

## كيف يكون الإقبال في كل جزء من أجزاء الصلاة

فإذا انتصب العبد قائماً بين يديه ، فأقبله على قيومية الله و عظمته فلا يتفلت يمناً و لا يسرة .  
وإذا كبر الله تعالى كان إقباله على كبريائه و إجلاله و عظمته .

و كان إقباله على الله في استفتاحه على تسبيحه و الثناء عليه و على سُبُحات وجهه ، و تنزيهه عمّا لا يليق به ، و يثني عليه بأوصافه و كماله .  
فإذا استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، كان إقباله على ركنه الشديد ، و سلطانه و انتصاره لعبده ، و منعه له منه و حفظه من عدوه .

وإذا تلى كلامه كان إقباله على معرفته في كلامه كأنه يراه و يشاهده في كلامه كما قال بعض السلف :  
لقد تجلي الله لعباده في كلامه .

و الناس في ذلك على أقسام و لهم في ذلك مشارب ، و أذواق فمنهم البصير ، و الأعور ، و الأعمى ، و الأصم ، و الأعمش ، و غير ذلك ، في حال التلاوة و الصلاة ، فهو في هذه الحال ينبغي له أن يكون مقبلاً على ذاته و صفاته و أفعاله و أمره و نهيهِ و أحكامه و أسمائه .

وإذا ركع كان إقباله على عظمة ربه ، و إجلاله و عزه و كبريائه ، و لهذا شرع له في ركوعه أن يقول : " سبحان ربي العظيم " .

فإذا رفع رأسه من الركوع كان إقباله على حمد ربه و الثناء عليه و تمجيده و عبوديته له و تفردهِ بالعطاء و المنع .

فإذا سجد ، كان إقباله على قربه ، و الدنو منه ، و الخضوع له و التذلل له ، و الافتقار إليه و الانكسار بين يديه ، و التملق له .

فإذا رفع رأسه من السجود جثى على ركبتيه ، و كان إقباله على غنائه وجوده ، و كرمه و شدة حاجته إليهنّ ، و تضرعه بين يديه و الانكسار ؛ أن يغفر له و يرحمه ، و يعافيه و يهديه و يرزقه .

فإذا جلس في التشهد فله حال آخر ، و إقبال آخر يشبه حال الحاج في طواف الوداع ، و استشعر قلبه الانصراف من بين يدي ربه إلى أشغال الدنيا و العلائق و الشواغل التي قطعه عنها الوقوف بين يدي ربه و قد ذاق قلبه التآلم و العذاب بها قبل دخوله في الصلاة ، فباشر قلبه روح القرب ، و نعيم الإقبال على الله تعالى ، و عافيته منها و انقطاعها عنه مدة الصلاة ، ثم استشعر قلبه عوده إليها بخروجه من حمى الصلاة ، فهو يحمل همّ انقضاء الصلاة و فراغه منها و يقول : ليتها اتصلت بيوم اللقاء .

و يعلم أنه ينصرف من مناجاة مَنْ كلّ السعادة في مناجته ، إلى مناجاة من كان الأذى و الهم و الغم و النكد في مناجاته ، و لا يشعر بهذا و هذا إلا من قلبه حي معمور بذكر الله و محبته ، و الأنس به ، و من هو عالم بما في مناجاة الخلق و رؤيتهم ، و مخالطتهم من الأذى و النكد ، و ضيق الصدر و ظلمة القلب ، و فوات الحسنات ، و اكتساب السيئات ، و تشتيت الذهن عن مناجاة الله تعالى عز و جل .

### الكلام على التسليم

و لما كان العبد بين أمرين من ربه عز و جل : أحدهما : حكم الرب عليه في أحواله كلها ظاهرا و باطنا ، و اقتضاؤه من القيام بعبودية حكمه ، فإن لكلّ حكم عبودية تخصه ، أعني الحكم الكوني القدري .

و الثاني : فعل ، يفعله العبد عبودية لربه ، و هو موجب حكمه الديني الأمري .  
و كلا الأمرين يوجبان بتسليم النفس إلى الله سبحانه ، و لهذا اشتق له اسم الإسلام من التسليم ، فإنه لما سلم لحكم ربه الديني الأمري ، و لحكمه الكوني القدري ، بقيامه بعبودية ربه فيه لا باسترساله معه في الهوى ، و الشهوات ، و المعاصي ، و يقول : قَدَّرَ عَلَيَّ استحق اسم الإسلام فليل له : مسلم .

### الشرع في بيان ثمرات الخشوع

و لما اطمأن قلبه بذكر الله ، و كلامه ، و محبته و عبوديته سكن إلى ربه ، و قرب منه ، و قرَّت به عينه فنال الأمان بإيمانه و نال السعادة بإحسانه ، و كان قيامه بهذين الأمرين أمراً ضرورياً أه لا حياة له ، و لا فلاح و لا سعادة إلا به .  
و لما كان ما بُلي به من النفس الأمارة ، و الهوى المقتضي لمرادها و الطباع المطالبة ، و الشيطان المغوي ، يقتضون منه إضاعة حظه من ذلك ، أو نقصانه ، اقتضت رحمة ربه العزيز الرحيم أن شَرَعَ له الصلاة مُخْلِفة عليه ما ضاع عليه من ذلك ، رادَّة عليه ما ذهب منه ، مجددة له ما ذهب من عزمه و ما فقده ، و ما أُخْلِقَ من إيمانه ، و جعل بين كل صلاتين برزخاً من الزمان حكمة و رحمة ، لِيُجَمَّ نفسه ، و يمحو بها ما يكتسبه من الدرن ، و جعل صِورتها علي صورة أفعاله ، خشوعاً و خضوعاً و إنقياداً و تسليماً و أعطى كل جارحة من جوارحه حظها من العبودية ، و جعل ثمرتها و روحها إقباله على ربه فيها بكليته ، و جعل ثوابها و محلها الدخول عليه تبارك و تعالى ، و

التزين للعرض عليه تذكيراً بالعرض الأكبر عليه يوم  
القيامة.

## لكل شيء ثمرة و ثمرة الصلاة الإقبال على الله

و كما أن الصوم ثمرته تطهير النفس ، و ثمرة الزكاة تطهير المال ، و ثمرة الحج وجوب المغفرة ، و ثمرة الجهاد تسليم النفس إليه ، التي اشتراها سبحانه من العباد ، و جعل الجنة ثمنها ؛ فالصلاة ثمرتها الإقبال على الله ، و إقبال الله سبحانه على العبد ، و في الإقبال على الله في الصلاة جميع ما ذكر من ثمرات الأعمال و جميع ثمرات الأعمال في الإقبال على الله فيها.

و لهذا لم يقل النبي صلى الله عليه و سلم : جعلت قرّة عيني في الصوم ، و لا في الحج و العمرة ، و لا في شيء من هذه الأعمال و إنما قال : " و جعلت قرّة عيني في الصلاة " .

و تأمل قوله : " و جعلت قرّة عيني في الصلاة " و لم يقل : " بالصلاة " ، إعلاماً منه بأن عينه لا تفر إلا بدخوله كما تفر عين المحب بملاسته لمحبوبه و تفر عين الخائف بدخول في محل أنسه و أمنه ، فقرة العين بالدخول في الشيء أم و أكمل مت قرّة العين به قبل الدخول فيه ، و لما جاء إلى راحة القلب من تعب و نصبه قال : " يا بلال أرحنا بالصلاة " .

### لماذا الراحة بالصلاة ؟

أي أقمها لنستريح بها من مقاساة الشواغل كما يستريح التعبان إذا وصل إلى مأمنه و منزله و قرّ فيه ، و سكن و فارق ما كان فيه من التعب و النصب .  
و تأمل كيف قال : " أرحنا بالصلاة " و لم يقل : " أرحنا منها " ، كما يقوله المتكلف الكاره لها ، الذي لا يصلحها إلا على إغماض و تكلف ، فهو في عذاب ما

دام فيها ، فإذا خرج منها وجد راحة قلبه و نفسه ؛ و ذلك أن قلبه ممتلئ بغيره ، و الصلاة قاطعة له عن أشغاله و محبوباته الدنيوية ، فهو معدَّب بها حتى يخرج منها ، و ذلك ظاهر في أحواله فيها ، من نقرها ، و التفات قلبه إلى غير ربه ، و ترك الطمأنينة و الخشوع فيها ، و لكن قد عَلِمَ أَنَّهُ لا بدُّ له من أدائها ، فهو يؤديها على أنقص الوجوه ، قائل بلسانه ما ليس في قلبه و يقول بلسان قلبه حتى نصلي فنستريح من الصلاة ، لا بها.

فهذا لَوْنٌ و ذاك لَوْنٌ آخر .

ففرق بين مَنْ كانت الصلاة لجوارحه قيلاً ثقيلًا ، و لقلبه سجنًا ضيقًا حرجًا ، و لنفسه عائقًا ، و بين مَنْ كانت الصلاة لقلبه نعيمًا ، و لعينه قرّة و لجوارحه راحة ، و لنفسه بستانًا و لذة.

**فالأول :** الصلاة سجن لنفسه ، و تقييد لجوارحه عن التورط في مساقط الهلكات ، و قد ينال بها التكفير و الثواب ، أو ينال من الرحمة بحسب عبوديته لله تعالى فيها ، و قد يعاقب على ما نقص منها.

**و القسم الآخر :** الصلاة بستان له ، يجد فيها راحة قلبه ، و قرّة عينه ، و لذة نفسه ، و راحة جوارحه ، و رياض روحه ، فهو فيها في نعيم يتفكه ، و في نعيم يتقلب يوجب له القرب الخاص و الدنو ، و المنزلة العالية من الله عزّ و جل ، و يشارك الأولين في ثوابهم ، بل يختص بأعلاه ، و ينفرد دونهم بعلو المنزلة و القرية ، التي هي قدر زائد على مجرد الثواب.

**من فوائد الصلاة القرب من الله**

و لهذا تَعِدُّ الملوک من أَرْضَاهم بِالْأَجْرِ وَ التَّقْرِيبِ ،  
کَمَا قَالَ السَّحْرَةُ لِفِرْعَوْنَ : { إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا  
نَحْنُ الْغَالِبِينَ } [الشعراء: 41] ، { قَالَ نَعَمْ وَ  
إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ } [الأعراف : 114].  
فَوَعَدَهُم بِالْأَجْرِ وَ الْقُرْبِ ، وَ هُوَ عَلُو الْمَنْزِلَةِ عِنْدَهُ .  
**فَالأَوَّلُ :** مَثَلُهُ مِثْلُ عَبْدٍ دَخَلَ الدَّارَ ، دَارَ الْمَلِكِ ، وَ  
لَكِنْ حِيلَ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ رَبِّ الدَّارِ بِسِتْرٍ وَ حِجَابٍ ، فَهُوَ  
مُحْجُوبٌ مِنْ وَرَاءِ السِّتْرِ فَلِذَلِكَ لَمْ تَقْرَ عَيْنُهُ بِالنَّظَرِ  
إِلَى صَاحِبِ الدَّارِ وَ النَّظَرِ إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ مُحْجُوبٌ  
بِالشَّهَوَاتِ ، وَ غَيُومِ الْهُوَى وَ دَخَانِ النَّفْسِ ، وَ بَخَارِ  
الْأَمَانِيِّ ، فَالْقَلْبُ مِنْهُ بِذَلِكَ وَ بغيرِهِ عَلِيلٌ ، وَ النَّفْسُ  
مُكَبَّئَةٌ عَلَى مَا نَهَوَاهُ ، طَالِبَةٌ لِحَظِّهَا الْعَاجِلِ .  
فلهذا لا يريد أحد من هؤلاء الصلاة إلا على إغماض ، و  
ليس له فيها راحة ، و لا رغبة و لا رهبة فهو في عذاب  
حتى يخرج منها إلى ما فيه قرة عينه من هواه و  
دنياه .

**وَ الْقِسْمُ الْآخِرُ :** مَثَلُهُ كَمِثْلِ رَجُلٍ دَخَلَ دَارَ الْمَلِكِ ،  
وَ رَفَعَ السِّتْرَ بَيْنَهُ وَ بَيْنَهُ ، فَقَرَّتْ عَيْنُهُ بِالنَّظَرِ إِلَى  
الْمَلِكِ ، بِقِيَامِهِ فِي خِدْمَتِهِ وَ طَاعَتِهِ ، وَ قَدْ أَتَحَفَهُ  
الْمَلِكُ بِأَنْوَاعِ التَّحْفِ ، وَ أَدْنَاهُ وَ قُرْبَهُ ، فَهُوَ لَا يَحِبُّ  
الانصراف من بين يديه ، لما يجده من لذة القرب و  
قرة العين ، و إقبال المملك عليه ، و لذة مناجاة المملك  
، و طيب كلامه ، و تذللته بين يديه ، فهو في مزيد  
مناجاة ، و التحف و افدة عليه من كل جهة ، و مكتن و  
قد اطمأنت نفسه ، و خشع قلبه لربه و جوارحه ، فهو  
في سرور و راحة يعبد الله ، كأنه يراه ، و تجلى له  
في كلامه ، فأشد شيء عليه انصرافه من بين يديه ،  
و الله الموفق المرشد المعين ، فهذه إشارة و نبذة

يسيرة في ذوق الصلاة ، و سرّ من أسرارها و تجلّ  
من تجلياتها.

# فصل

## الفرق بين أهل السماع وأهل الصلاة

فنحن نناشد أهل السماع بالله الذي لا إله إلا هو ، هل يجدون في سماعهم مثل هذا الذوق أو شيء منه؟ بل نناشدهم بالله ، هل يدعهم السماع يجدون بعض هذا الذوق في صلاتهم أو جزءاً يسيراً منها؟ بل هل تَشْقُوا من هذا الذوق رائحة ، أو شموا منه شمة قط ؟

و نحن نحلف ، عنهم أن ذوقهم في صلاتهم و سماعهم صد هذا الذوق ، و مشربهم ضد هذا المشرب .

و لولا خشية الإطالة لذكرنا بُدَّة من ذوقهم في سماعهم ، تدلُّ على ما ورائها . و لا يخفى على من له أدنى عقل ، و حياة قلب ، الفرق بين ذوق الآيات ، و ذوق الأبيات ، و بين ذوق القيام بين يدي رب العالمين ، و القيام بين يدي المغنين ، و بين ذوق اللذة و النعيم بمعاني ذكر الله تعالى و التلذذ بكلامه ، و ذوق معاني الغناء ، و التطريب الذي هو رقية الزنا ، و قرآن الشيطان ، و التلذذ بمضمونها فما اجتمع و الله الأمران في قلب إلا و طرد أحدهما الآخر ، و لا تجتمع بنت رسول الله و بنت عدو الله عز و جل عند رجلٍ أبداً ، و الله سبحانه و تعالى أعلم .

# فصل

فمتى تجئ الأذواق الصحيحة المستقيمة إلى قلوب  
قد انحرفت أشد الانحراف عن هدي نبيها صلى الله  
عليه و سلم ، و تركت ما كان عليه هو و أصحابه و  
السلف الصالح ، فإنهم كانوا يجدون الأذواق الصحيحة  
المتصلة بالله عز و جل في الأعمال : الصلاة  
المشروعة ، و في قراءة القرآن ، و تدبره و استماعه  
، و أجر ذلك ، و في مزاحمة العلماء بالركب ، و في  
الجهاد في سبيل الله ، و في الأمر بالمعروف و النهي  
عن المنكر ، و في الحب في الله و البغض فيه ، و  
توابع ذلك ، فصار ذوق المتأخرين - إلا من عصمه الله  
- في اليراع و الدف ، و المواويل ، و الأغاني  
المطربة من الصور الحسان و الرقص ، و الضجيج ، و  
ارتفاع الأصوات ، و تعطيل ما يحبه الله ، و يرضاه من  
عبادته المخالفة لهوى النفس . فشتان بين ذوق  
الألجان و ذوق القرآن و بين ذوق العود و الطنبور ، و  
ذوق المؤمنين و الثور ، و بين ذوق الزمر و ذوق  
الزمر ، و بين ذوق الناي و ذوق { اقتربت الساعة  
و انشق القمر } [القمر : 01] و بين ذوق  
المواويل و الشبّابات و ذوق يس و الصافات ، و بين  
ذوق غناء الشعر و ذوق سورة الشعراء ، و بين ذوق  
سماع المكاء و التصدية و ذوق الأنبياء .  
و بين الذوق على سماع تُذكر فيه العيون السود و  
الخصور و القدود ، و ذوق سماع سورة يونس و هود ،  
و بين ذوق الواقفين في طاعة الشيطان على  
أقدامهم صواف ، و ذوق الواقفين في خدمة الرحمن  
في سورة الأنعام و الأعراف ، و بين ذوق الواجدين  
على طرب المثالث و المثاني ، و ذوق العارفين عند

استماع القرآن العظيم و السبع المثاني ، و بين ذوق  
أولى الأقدام الصفات في حظيرة سماع الشيطان ، و  
ذوق أصحاب الأقدام الصافات بين يدي الرحمن .  
سبحان الله هكذا تنقسم و المواجيد ، و يتميز خلق  
المطرودين من خلق العبيد ، و سبحان الممد لهؤلاء و  
هؤلاء من عطائه و المفارق بينهم في الكرامة يوم  
القيامة ، فوالله لا يجتمع محبو سماع قرآن الشيطان  
و محب سماع كلام الرحمن في قلب رجل واحد أبداً .  
كما لا تجتمع بنت عدو الله و بنت رسول الله عند  
رجل واحد أبداً .

أنت القتل بكلِّ مَنْ أحبته \*\* فاختر لنفسك في  
الهوى مَنْ تصطفي

### سماع أهل الحق

كان أصحاب محمد صلى الله عليه و سلم و رضي  
الله عنهم ، إذا اجتمعوا و اشتاقوا إلى حاد يحدو بهم ،  
ليطيب لهم السير ، و محرك يحرك قلوبهم إلى  
محبوبهم ، أمروا واحدا منهم يقرأ و الباكون  
يستمعون ، فتطمئن قلوبهم ، و تفيض عيونهم و  
يجدون من حلاوة الإيمان أضعاف ما يجده  
السماعاتية من حلاوة السماع .

و كان عمر بن الخطاب إذا جلس عنده أبو موسى  
يقول : يا أبا موسى ذكرنا ربنا ، فيأخذ أبو موسى ،  
في القراءة ، و تعمل تلك الأقوال في قلوب القوم  
عملها ، و كان عثمان بن عفان يقول : لو طهرت  
قلوبنا لما شبعنا من كلام الله .

و أي و الله ، كيف تشبع من كلام محبوبهم و فيه نهاية  
مطلوبهم ؟ و كيف تشبع من القرآن ؟ و إنما فتحت  
به لا بالغناء و الألحان ؟ !

و إذا مَرَضْنَا تداوينا بذكركم \*\* فإن تركناه زادَ السقم  
و المرض

و أصحاب الطرب و الألحان عن هذا كله بمعزل ، هم  
في وادي و القوم في واد.

و الضبُّ و التُّون قد يرجى التقاؤهما \*\* و ليس يُرجى  
التقاء الوحي و القصب

فأين حال من يطرب على سماع الغناء و القصب بين  
المثالث و المثاني و ذوقه و وجدته إلى حال من يجد  
لذة السماع و روح الحال ، و ذوق طعم الإيمان إذا  
سمع في حال إقبال قلبه على الله و أنسه به و شوقه  
إلى لقائه ، و استعداده لفهم مراده من كلامه و  
تنزيله على حاله و أخذه بحضه الوافر منه قارئاً  
مجيداً حسن الصوت و الأداء يقرأ :

بسم الله الرحمن الرحيم { طه ما أنزلنا عليك  
الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَن يَخْشَى تَنْزِيلًا  
مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّمَاءَاتِ الْعُلَى الرَّحْمَنُ  
عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا  
فِي الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ مَا تَحْتِ الثُّرَى وَ إِن  
تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفَى } [طه:  
1-7].

و أمثال هذا النمط من القرآن الذي إذا صادف حياة  
في قلب صادق قد شمَّ رائحة المحبة و ذاق حلاوتها ،  
فقلبه لا يشبع من كلام محبوبه و لا يقر و لا يطمئن إلا  
به ، كان موقعه من قلبه كموقع وصال الحبيب بعد  
طول الهجران ، و حلَّ منه محلُّ الماء البارد في شدَّة  
الهجير من الظما ، فما ظنُّك بأرض حياتها بالغيث

أصابها وابله ، أحوج ما كانت إليه ، فأثبت فيها من كلِّ زوج بهيج ، قائم على سوقه يشكره و يثني عليه .  
فهل يستوي عند الله تعالى و ملائكته و رسوله و الصادقين من عباده ، سماع هذا و سماع هذا ، و ذوق هذا و ذوق هذا ، فأهل سماع الغناء عبيد نفوسهم الشهوانية ، يعلمون السماع طلباً للذة النفس و نيلاً لحظها الباطل ، فمن لم يميز بين هذين السماعين ، و الذوقين فليسأل ربه بصدق ، رغبته إليه أن يحيي قلبه الميت ، و أن يجعل له نوراً يستضيء به في ظلمات جهله ، و أن يجعل له فرقاناً يفرِّق به بين الحق و الباطل ، فإنه قريب مجيب .

## فصل

### في التنبيه على نكتة خفية من نكت السَّماع

و في السماع نكتة حقيقية أصلية يعرفها أهلها ، و يجدونها بعد انقضائه و هي أنه قد علم الذائقون منهم أنه ما وجد صادق في السماع الشعري و جداً ، و تحرك به إلا وجد بعد انقضائه و مفارقة المجلس قبضاً على قلبه ، و نوع استيحاش ، و أحس ببعده و انقطاعاً و ظلمة ، و لا يتفطن لهذا الأمر إلا من في قلبه أدنى حياة و إلا : فما لجرح بميت إيلام ، و لو سئل عن سبب هذا لم يعرفه ؛ لأن قلبه مغمور في السماع و ذوقه الباطل ؛ فهو غافل عن استخراج آلامه التي طرقته فيه ، و عن أسباب فساد القلب منه ، و لو وزنه بالميزان العدل لعلم من أين أتى ، فاسمع الآن السبب الذي لأجله نشأ منه هذا القبض ، و هذه الوحشة ، و البعد .

لما كان السماع الشعري أعلي أحواله أن يكون ممتزجاً بحق و باطل ، و مركباً من شهوة و شبهة ، و أحسن أحوال صاحبه أن تأخذ الروح حظها المحمود منه ، ممتزجاً بحظ النفس ، و الشيطان و الهوى فهو غير صافي ، و لا خالص ، فامتزج نصيب الصادق فيه من الرحمن بنصيب الشيطان ، و اختلط حظ القلب بحظ النفس ، هذا أحسن أحواله ، فإنه مؤسس على حظ النفس و الشيطان و هو فيه بذاته و هو نصيبه من الرحمن فهو فيه بالعرض ، لوم يوضع عليه و لا أسس عليه فاختلط في وادي القلب الماء اليسير الصافي بالماء الكثير الكدر ، و غلب الخبيث في الطيب ، أو تجاوزا و التقت الواردات الرحمانية ، و الواردات الشيطانية .

و المستمع الصاد لغلبة صدقه ، و ظهور أحكام القلب فيه يخفى عليه ذلك الوقت أثر الكدر و لا يشعر به سيما مع سُكر الروح به ، و غيبتها عن سوى مطلوبه ، فلما أفاق من سكره ، و فارق لذة السماع و طيبه ، وجد اللوث و الكدر الذي هو حظ النفس ، و الشيطان ، و أثر جثوم الشيطان على قلبه فأثر فيه ذلك الأثر قبضاً ، و وحشة ، و أحس به بعداً و كلما كان أصدق و أتم طلباً كان وجوده لهذا أتم و أظهر فإن استعداده هو بحياة قلبه يوجب له الاحساس بهذا ، و لا يدري من أين أتى ، و هذا له في الشاهد نظائر و أشباه منها :

إنَّ الرجل إذا اشتغل قلبه اشتغالاً تاماً بمشاهدة محبوب أو رؤية مخوف ، أو لذة مَلَكت عليه حسنه و قلبه ، إذا أصابه في تلك الحالة ضربٌ ، أو لسعٌ أو سببٌ مؤلم ، فإنه لا يكاد يشعر به ، فإذا فارقت تلك الحالة وجد منه ألم حتى كأنه أصابه تلك الساعة ،

فإنه كان في مانع يمنعه من الإحساس بالألم فلما زال المانع أحس بالألم.

## أهل الصدق إذا دخلوا في السماع الباطل

ولهذا كان بعض الصادقين إذا فارق السماع بادر إلى تجديد التوبة و الاستغفار ، و أخذ في أسباب التداوي التي يُدفع بها موجب أسباب القبض و الوحشة و البعد.

و هذا القدر إنما يعرفه أولوا الفقه في الطريق أصحاب الفِطْن ، المعتنون بتكميل نفوسهم ، و معرفة أدوائها و أدويتها و الله المستعان.

و لا ريب أن الصادق في سماع الأبيات قد يجد ذوقاً صحيحاً إيمانياً ، و لكن ذلك بمنزلة من شرب عسلاً في إناء نجس.

و النفوس الصادقة ذوات الهمم العالية رفعت أنفسها عن الشراب في ذلك الإناء تقذراً له ، ففرت منه لاستقامتها و طهارتها ، و علو همتها فهي لا تشرب ذلك الشراب إلا في إناء يناسبه ، فإذا لم يجد إناء يناسبه صانت الشراب عن وضعه في ذلك الإناء ، و انتظرت أن يليق به.

و غيرها من النفوس تضع ذلك الشراب في أي إناء انفق لها ؛ من عظام ميتة أو جلد كلب أو خنزير أو إناء خمر ، طالما ما شرب به الخمر ، أو لا يستحي الغراب أن يشرب أطيب شراب و أذنه في هذه الآنية ؟

و لو جرّد الصادق ذلك في حال سماعه لوجد ذوقه من ذلك ، و لكن حلاوة العسل تغيب عنه ننته و قدره و أثر قبحة على قلبه في تلك الحال ، فبعد مفارقتها

يوجب له ذلك وحشةً و قبضاً ، هذا إذا كان صادقاً في حاله مع الله و كان سماعه لله و بالله .

و أما إن كان كاذباً كان سماعه للذة نفسه و حظه فهو يشرب النجاسات في الآنية القذرات و لا يحس بشيء مما ذكرناه ؛ لاستيلاء الهوى و النفس و الشيطان عليه .

و أما صاحب السماع القرآني الذي تذوّقه ، و شرب منه ، فهو يشرب الشراب الطهور ، الطيب النظيف في أنظف إناءٍ ، و أطيبه ، و أطهره .  
فالآنية ثلاثة : نظيف ، و نجس ، و مختلط .  
و الشرابات ثلاثة : طاهر و نجس و ممزوج .

## القلوب ثلاثة

و القلوب ثلاثة : صحيح سليم فشرا به الشراب الطهور في الإناء النظيف ، و سقيم مريض فشرا به الشراب النجس في الإناء القذر ، و قلب فيه مادتان . إيمان و نفاق ، فشرا به في إناء بحسب المادتين ، و قد جعل الله لكل شيء قدراً ، فالعارف من نظر في الأسباب إلى غاياتها و نتائجها ، و تأمل مقاصدها ، و ما تؤول إليه .

و من عرف مقاصد الشرع في سدِّ الذرائع المفضية إلى الحرام ، قطع بتحريم هذا السَّماع ، فإنَّ المرأة الأجنبية و سماع صوتها حرام ، و كذلك الخلوة بها .

## المحرمات في الشريعة

و محرمات الشريعة قسمان :

- قسم حُرِّمَ لما فيه من المفسدة .
- و قسم حُرِّمَ لأنه ذريعة إلى ما اشتمل عليه من المفسدة .

فمن نظر إلى صورة هذا المحرم ، و لم ينظر إلى ما هو وسيلة إليه استشكل وجه التحريم .

و الله سبحانه و تعالى أعلم ، و الحمد لله رب العالمين ، و صلى الله و سلم على سيد المرسلين محمد صلى الله عليه و سلم و على آله و أصحابه و التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، بمتك و كرمك يا أرحم الراحمين .

## قال محققه - عفا الله عنه - :

"فقد منَّ الله عليَّ إذ وفقني و انتدبني لإخراج هذا السفر الجليل ، بهذه الصورة ، معتمداً في إخراجهِ

على ثلاثة نُسخ خطية من بلدان ثلاث " [ص 07] ، " و هي مصر و العَراق و المملكة العربية السعُودية . و الكتاب لم يُنشر سابقاً بهذه الصورة أبداً و لا هو مستلٌ من كتاب كبير .

و حقيقة هذه الرسالة هو أنها جزء من كتاب " مسألة السَّماع " و الذي نشر أيضا بعنوان آخر - كما سيمر - و لكن هذا الجزء جاء ناقصا عن المخطوطات ، و فيه تقديم و تأخير ، و فيه تحريف . " [ص 19] ثم قال : " فوجدت أن نشر هذه الرسالة بشكل مستقل و باسم مغاير هو عمل شرعي و مشروع ؛ لأسباب كثيرة أذكر منها :

1- أن هذه الرسالة بشكلها النهائي تختلف كثيرا عن الجزء المطبوع في كتاب " الكلام على مسألة السماع " .

2- أنها لا تشبه أي كتاب أو رسالة منشورة سابقا ، فقد استلت من كتب ابن القيم كثير من المؤلفات ، منها ما استل قديما ، و منها ما استله المعاصرون .. " [ص 19]

و أضاف قائلاً : " فهذا الكتاب لا يعتبر كتاباً مستلاً فهو لا يشبه أبداً المستلات السابقة سواء ما استل حديثاً أو قديماً ، بل هو كتاب مستقل بذاته .

ج- كتاب " الكلام على مسألة السماع " ألفه ابن القيم على مراحل فهو مكون من قسمين أو جزئين كما في مقدمة الكتاب [ص 73] لمحققه راشد بن عبد العزيز الحمد .

الجزء الأول من فصلين : الفصل الأول بيان حكم الغناء في الشريعة .

الفصل الثاني : أن تعاظمي السماع على وجه اللعب و الخلاعة و على وجه للقربة و الطاعة .

و ختم هذا الفصل بالموازنة بين ذوق الصلاة و ذوق الغناء.

الجزء الثاني : و اشتمل على ذكر شبه المغنين و دحضها.

و يبدو لي أن ابن القيم أجاب عن هذه الفتيا في سنة [ 740 هـ ] ثم بعد فترة أضاف لها الجزء الثاني و دليل ذلك قول ابن القيم في بداية الجزء الثاني [ ص 233 ] : قال الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الحنبلي إمام الجوزية في تمام الجواب عن الفتيا الواردة في السماع سنة أربعين و سبعمائة التي أجاب فيها العلماء على المذاهب الأربعة رضي الله عنهم أجمعين.

أي أن ابن القيم ألف كتابه على مرحلتين . و رسالتنا هذه مستلة من نهاية الجزء الأول و فصله الأخير

بقي هناك سؤالاً لماذا كل هذه الاختلافات في النسخ بين المطبوع و المخطوط ، و بين نفس المخطوط ؟ و أقرب جواب وقع لي هو : أن ابن القيم نفسه استل هذه الرسالة ثم نقحها أكثر من مرّة.

و مع وقوع السقط و التحريف من النساخ ، و كثرة النسخ المنقحة و المصححة من ابن القيم نفسه .

جعل هذا الاختلاف الكبير بين النسخ .

فهي إذن رسالة استلها ابن القيم نفسه و نقحها و أعاد النظر فيها عدّة مرات و أضاف و حذف و قدّم و أخر . و أصبحت على شكلها الحالي . هذه الأسباب الثلاثة هي التي دفعتني لنشر هذه الرسالة بشكل مستقل . [ ص 21-22 ] .

انتہی